ابن هشام اللخمي وآثاره
مع العناية بكتابه «شرح الفصيح»

بقلم : الدكتور عبد الكريم عوفي
معهد اللغة العربية وآدابها
جامعة باتنة ـ الجزائر

توطئة :

كانت منطقة العدوتين في الغرب الإسلامي، في العهدين المرابطي والموحدي مسرحا لأحداث سياسية خطيرة، كما ساد المنطقة نشاط علمي وثقافي، إذ غدت الأندلس والمغرب بعد القرن الرابع الهجري قبلة للعلماء والمتعلمين، وموطنا للعلوم والمعارف المختلفة، ونبغ فيها علماء ذاع صيتهم في الآفاق، ولا سيما في القرنين الخامس والسادس الهجريين، وهي الفترة التي ظهر فيها السرقسطي (ت 538 هـ)، وابن عطية الغرناطي (ت 541 هـ)، والتجيبي (ت 542 هـ)، وأبي بكر بن العربي (ت 543 هـ)، وابن هشام اللخمي (ت 577 هـ)، وابن مضاء اللخمي (ت 592 هـ)، وغيرهم كثيرون ممن ساهموا في نشر العلم والمعرفة الإنسانية عامة في المنطقة.

ولا شك أن الواقف على التراث الذي خلفه أجدادنا في الأندلس والمغرب، يدرك حقائق مذهلة، إذ أن ما تحتفظ به الخزانة الحسنية، والخزانة العامة في الرباط، وخزانة الأوسكوريال في مدريد، ومعهد المخطوطات العربية، وغير ذلك من الدور العلمية والخزانات في العالم الإسلامي والغربي من كنوز المعرفة الإنسانية صورة حية عن الرقي العلمي الذي بلغه علماؤنا عبر العصور المختلفة.

وقصد الوقوف على هذه الحركة العلمية التي شهدتها المنطقة في القرن السادس الهجري، ولا سيما في جانبها اللغوي، أقدم نبذة عن عالم من أبرز علمائها مع العناية بأثر من آثاره، هذا العالم هو ابن هشام اللخمي أحد علماء التصويب اللغوي في الغرب الإسلامي.

ابن هشام اللخمي (ت 577 هـ) :

هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن هشام بن إبراهيم بن خلف اللخمي النحوي اللغوي السبتي الإشبيلي[1]. ينسب إلى إشبيلية لولادته فيها، وإلى سبتة لإقامته فيها مدة طويلة.

وقد سكتت كل المصادر التي ترجمت له عن ذكر تاريخ ولادته، وحال الأسرة التي عاش فيها، إلا أن بعض القرائن تفيد أنه ولد في العقد الثاني من القرن السادس الهجري.

أما أسرته فيظهر أن أخذه العلم عن شيوخ كبار، ومشاركته في الحياة العلمية والثقافية قد كانت أسرة محبة للعلم.

فالرجل اتصل بجمهرة من العلماء في المشرق والمغرب عن طريق آثارهم التي استوعبها وأفاد منها في تأليف كتبه، وهم كثيرون، كالخليل وسيبويه والمبرد وثعلب والفراء وابن سيده وابن السيد البطليوسي والزبيدي وعبد الملك بن سراج، وغيرهم ممن ترددت أسماؤهم في كتبه.

وممن اتصل بهم وتلقى عنهم من شيوخه[2] : أبو بكر بن العربي (ت 543 هـ)، وأبو طاهر السلفي(ت 576 هـ)، وابن مضاء اللخمي القرطبي (ت 592 هـ)، وأبو الخليل (؟).

وقد تبوأ مكانة علمية رفيعة أهلته لتصدر مجالس التعليم في كل من سبتة وإشبيلية، وتخرج على يديه تلامذة ذاع صيتهم في المجال المعرفي[3]، كأبي الحسن الخولاني (؟) وأبي عبد الله ابن الغازي (ت 591 هـ) وأبي عبد الله ابن الابار (ت 659 هـ) وأبي عبد الله محمد بن سعيد الكناني (؟)، وأبي علي الجذامي (؟)، وأبي عمر يوسف بن عبد الله الغافقي (؟).

لقد عاش ابن هشام اللخمي في فترة انتقال الحكم المرابطي إلى الموحدين، وهي فترة اتسمت بالتطور الفكري وازدهار العلوم، إذ كانت إشبيلية مسقط رأسه إحدى حواضر العلم التي أمّها العلماء والمتعلمون، وفيها نبغ شيخه (أبو بكر بن العربي)، وابن طفيل الإشبيلي، وابن زهر الطبيب. كما كانت سبتة المغربية التي قصدها ابن هشام وتصدى فيها للتدريس زمنا طويلا لا تقل أهمية عن إشبيلية التي أنجبت القاضي عياض اليحصبي والشريف الإدريسي.

إن هذه الأجواء الثقافية والفكرية انعكست آثارها على شخصية ابن هشام اللخمي، فقد اتسمت بغزارة العلم والإحاطة الشاملة بعلوم اللغة والأدب والفقه والتفسير والحديث والتاريخ. ولعل خير ما يعكس هذه المكانة العلمية تلك المناظرة العلمية التي جرت بينه وبين أبي بكر محمد بن طاهر الاشبيلي (ت 580 هـ) أحد العلماء الكبار ومن حذاق النحو، إذ كان يرحل إليه في العربية[4]، فقد ذكر المراكشي أن ابن هشام تفوق على صاحبه بالنصوص الجلية والآراء المؤيدة بالحجج الواضحة.

هذا المستوى العلمي الرفيع هو الذي جعل العلماء يتخذون كتبه مصادر أساسية لمؤلفاتهم، أما حظه من الشعر فقليل، وكل ما وصلنا منه هو سبعة أبيات جمع فيها معاني كلمة (الخال) وهي من المشترك اللفظي، لكنه لم يستوفها.

وعن سنة وفاته فإن الروايات متضاربة بشأنها، وأقربها إلى الصواب رواية ابن عبد الملك المراكشي الذي جعل وفاته سنة (577 هـ)[5].

قال المراكشي عنه : «كان نحويا لغويا أديبا تاريخيا، ذاكرًا أخبار الناس قديما وحديثا وأيامهم، حسن الخلق، درّس ما كان ينتحله من العُلوم بسبتة طويلا، وصنف في ما كان لديه من المعارف مصنفات مفيدة»[6].

آثار ابن هشام اللخمي :

أثرى ابن هشام اللخمي المكتبة العربية بجملة من التآليف في علوم اللغة والأدب، وكلها شروح لكتب سابقة، كشروح المنظومات الشعرية والمتون اللغوية والأدبية، وفيما يلي بيان لكتبه المطبوعة والمخطوطة :

أولا : الكتب المطبوعة :

1. **شرح الفصيح** : وقد حققه الدكتور مهدي عبيد في العراق عام 1989، وأعدتُ تحقيقه، وسيأتي الحديث فيه بعد حين.
2. **شرح قصيدة ابن دريد في المقصور والممدود** : وقد حققها ونشرها مهدي عبيد في مجلة المورد، المجلد (13)، العدد (1)، عام 1980.
3. **الفوائد المحصورة في شرح مقصورة ابن دريد** : وهي القصيدة التي مدح بها ابن ميكال وقد نالت إعجاب الشعراء والعلماء فعملوا على شرحها وتفسير غريبها، ومعارضتها، وتشطيرها، وإعرابها، وبلغت المؤلفات التي أقيمت حولها أزيد من ستين مؤلَّفا، ومن أوفى الشروح التي تناولتها شرح ابن هشام اللخمي، وقد حقق شرحه أربع مرات :

أ ـ حققه كريم حسام الدين بعنوان (شرح ابن هشام اللخمي لمقصورة ابن دريد) وحصل به على الماجستير من جامعة القاهرة عام 1975.

ب ـ وحققه الأستاذ أحمد عبد الغفور عطار ونشره في بيروت عام 1980.

ج ـ وحققه مهدي عبيد جاسم بعنوان (ابن هشام اللخمي وجهوده اللغوية مع تحقيق كتابه شرح مقصورة ابن دريد) وحصل به على الماجستير من جامعة بغداد عام 1983، ثم نشره في بيروت عام 1986.

د ـ وحققه محمد حامد الحاج خلف، بعنوان (الفوائد المحصورة في شرح المقصورة)، وحصل به على دبلوم الدراسات العليا من جامعة محمد الخامس بالرباط، عام 1986.

4. **المدخل إلى تقويم اللسان وتعليم البيان** : وهو أشهر كتب التصويب اللغوي في الغرب الإسلامي، اهتم القدماء والمحدثون به فعنُوا بشرحه وبيان مقاصده، وقد نشرت أقسام منه في فترات زمنية مختلفة، كما أقيمت عليه دراسات علمية وافية أذكر بعضها بإيجاز :

1) ألفاظ مغربية من كتاب ابن هشام اللخمي : للدكتور عبد العزيز الأهواني، نشر بمجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد (3)، 1957.

2) ما تمثلت به العامة مما وقع في أشعار المتقدمين والمحدثين : للدكتور عبد العزيز الأهواني، ضمن كتاب (إلى طه حسين في عيد ميلاده السبعين)، نشر في القاهرة عام 1962، وقد ترجم إلى الإسبانية.

3) الرد على أبي بكر الزبيدي في لحن العامة وابن مكي في تثقيف اللسان : للدكتور عبد العزيز مطر، نشر القسم الأول في مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد(1)، الجزء (2)، عام 1966، ونشر القسم الثاني في حولية كلية البنات، جامعة عين شمس، عام 1973، وأعيد نشر القسمين في كتاب مستقل بعنوان (المدخل إلى تقويم اللسان وتعليم البيان : الرد على الزبيدي وابن مكي)، في القاهرة عام 1981.

4) ونشر الأبواب المتبقية الدكتور حاتم صالح الضامن في مجلة المورد العراقية في سبعة أقسام في الأعوام (1981-1983)، وقد أخبرني الدكتور الضامن أن الكتاب سيصدر مشفوعا بعدد من الفهارس الفنية قريبا في بيروت.

5) قدمت حول (المدخل) ثلاث رسائل علمية (دكتوراه دولة) في جامعات : غرناطة، ومدريد، وباريس.

وهناك عدد كبير من الدراسات والمقالات تناولته ضمن الدراسات الخاصة بالتصويب اللغوي.

ثانيا : الكتب المخطوطة :

1. **شرح خطب ابن نباتة** : أفادني الدكتور محمد ابن شريفة أنه توجد بحوزة أحد الكتبيين في الرباط نسخة منه.
2. **شرح منظومة في المنازل والبروج** : منه أربع نسخ خطية، اثنتان في الخزانة الحسنية بالرباط، وواحدة في المكتبة الوطنية في الجزائر، وأخرى في دار الكتب الوطنية بمصر.
3. **الفصول والجمل في شرح أبيات الجمل** : ومنه أربعُ نسخ أيضا، اثنتان في المملكة المغربية، وواحدة في دار الكتب الوطنية في تونس، وأخرى في دمشق بخزانة أبي اليسر عابدين.
4. **قصيدة في معنى الحال** : تقع في سبعة أبيات، روتها كتب التراجم التي ترجمت لابن هشام اللخمي، ولكنها لم تصل إلينا مخطوطة.

ثالثا : الكتب المفقودة :

وهو كتاب واحد ذكره ابن عبد الملك المراكشي باسم (**قصيدة الحريري في الظاء**) ولكنه لم يصل إلينا.

رابعا : الكتب المنسوبة إليه خطأ :

نسب بعض المترجمين لابن هشام اللخمي عددا من الكتب، لكن التحقيق فيها أثبت أن نسبة هذه الكتب لابن هشام اللخمي خطأ، وهي :

1. **الجمل في النحو.**
2. **الدر المنظم في مولد النبي المعظم.**
3. **شرح الفصول الخمسون لابن معطي.**
4. **المقرب في النحو.**

وقد اتسمت مؤلفات ابن هشام اللخمي المذكورة بأنها :

1) شروح لكتب سابقة، وهي السمة الغالبة على التأليف في عصره.
2) متنوعة، فهي تشمل النحو والصرف والتصويب اللغوي، والظواهر اللغوية والأدبية والتاريخية.
3) تناولت قضايا علمية، كما في قصيدة أبي علي في الهيئة، وهي في علم الفلك (منظومة في المنازل والبروج).
4) غنية في مصادرها التي احتج بها لتوثيق مادته.
5) متسمة بالتحليل والنقد والشرح، والتعقيب على آراء العلماء مع بروز شخصيته المستقلة فيها.
6) غنية بالمعارف العامة، لكثرة الاستطرادات والحرص على إفهام القارىء.
7) واضحة من حيث أسلوبها وعدم الاغراب في التراكيب والعبارات، وخالية من المحسنات البديعية.

ولعل خير ما يعكس هذه الملاحظات وغيرها مما لم نذكره كتابه الموسوم بـ (شرح الفصيح) الذي أقدمه للقارىء في هذه اللمحات.

شرح الفصيح :

يعرف القارىء العربي أن أبا العباس ثعلب (ت 291 هـ) رأس المدرسة الكوفية في زمانه، قد ألف كتابه (الفصيح) في التصويب اللغوي ليدرأ ما طرأ على اللسان العربي من لحن، ووجهه للعامة والخاصة، ولهذا الكتاب فائدة عظيمة ومنفعة خطيرة

عند أهل العلم ـ كما قال ابن هشام اللخمي ـ، وقد أثار حركة علمية واسعة غنية من حيث مادتها ورجالاتها، عكست اهتمام علماء العربية عبر الأعصر بظاهرة التصويب اللغوي، وكيف تطورت وسائلها وتنوعت انطلاقا من متن الفصيح، وما هذه الحركة التي أثمرت أزيد من ستين مؤلّفا بين شرح واستدراك ونظم وتهذيب ونقد وانتصار إلاّ صورة حية عن الأثر الذي تركه الفصيح في مسار اللغة العربية.

ومن الشروح التي أقيمت حول الفصيح شرح ابن هشام اللخمي الذي أقدمه للقارىء في هذه العجالة السريعة.

حظي شرح ابن هشام بالتحقيق مرتين، حققه الدكتور مهدي عبيد جاسم على نسختين في العراق ونال به درجة الدكتوراه من جامعة بغداد ثم نشره عام 1989.

كما قمت بتحقيقه على خمس نسخ خطية (دون علمي بالتحقيق الأول)، وحصلت به على درجة الدكتوراه من جامعة الجزائر عام 1993. وقد قدمت له بدراسة وافية وقعت في (422) صفحة، تناولت فيها عصره وحياته وآثاره، والفصيح والشروح التي أقيمت حوله، ودرست منهجه ومصادره وطريقة توثيقه المادة اللغوية وتفسيرها وضبطها، كما تناولت بالدراسة والتحليل أبرز الظواهر اللغوية التي كانت محل عناية الشارح، في المستويات الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية، وغير ذلك من ظواهر كالاشتقاق واللهجات والمعرب والعامي والمصطلحات والمعارف العامة، كأسماء الأمراض والمواضع والحيوانات والنباتات، وأبرزت في فصل خاص شخصيته العلمية في الشرح وموقفه من ثعلب والعلماء الآخرين، مع التنبيه إلى السمات التي تميز شرحه، وما اعتوره من نقص، وأوضحت في فصل آخر المنهج المتبع في التحقيق والمخطوطات المعتمدة وأماكن وجودها، ولما وقفت على نسخة العراق قبل طبع رسالتي أجريت مقارنة بين النصين فكتبت استدراكا وقع في (80) صفحة صححت فيه مسائل كثيرة وقع فيها المحقق العراقي مع التنويه بالجهد الذي بذله وإحرازه السبق في تحقيق الشرح ونشره وفاءً لأهل الفضل.

وفيما يلي أبرز القضايا التي ميزت الشرح مما تقدم ذكره :

1. **مقدمة الشرح :**

أوضح فيها سبب الشرح،ومنهجه فيه، وشكواه من قلة الاهتمام بالأدب والعلم، وقيمة الفصيح، وسنده في الرواية.

2. **مادة الكتاب :**

بنى ابن هشام شرحه على الأبواب الثلاثين التي وردت في متن الفصيح، وقد وشّى شرحه بالنقول والآراء اللغوية والنحوية، لعلماء كوفيين وبصريين وبغداديين وأندلسيين، ومع أن الفصيح يغلب عليه الطابع الصرفي إلا أن الشرح قد جاء عاكسا للمستويات اللغوية المختلفة من صوت وصرف ونحو ودلالة.

3. **منهج الشرح :**

يتسم شرح المتون عند القدماء بذكر عبارة المصنف المقصودة بالشرح مسبوقة بلازمة معروفة هي (قال أو قوله) ثم تتبع بعبارة الشارح مسبوقة بلازمة معروفة أيضا هي (قال الشارح أو قال المفسر)، وهذا ما نجده، عند ابن هشام اللخمي في شرحه، وهو أحيانا يذكر العبارة كاملة وأحيانا أخرى يكتفي بكلمة واحدة من العبارة الأصلية، وقد يعقب على الكلمة أو العبارة كذلك بكلمة واحدة أو بجملة أو بفقرات طويلة يستطرد من خلالها في قضايا متفرعة،

وسبب الاستطراد عنده يرجع إلى حرصه على تقديم مادة لغوية واضحة للقارىء، لأن بعض الألفاظ والعبارات إذا لم تشفع بشروح وافية توقع القارىء في اللبس.

4. **مصادره في الشرح :**

لم يصرح ابن هشام اللخمي في مقدمة شرحه بالمصادر التي اعتمد عليها في الشرح كما يفعل بعض المؤلفين، ولكنه صرح في ثناياه ببعض الكتب وأسماء أصحابها، وقد وجدته يذكر اثنين وعشرين كتابا، كإصلاح المنطق والجمهرة والجيم ودرة الغواص والعين والفصوص والمحكم والياقوت والنبات.

كما وقفت على عشرين كتابا آخر تقلّ منها دون التصريح بها، كأدب الكاتب، وأصول ابن السراج والاقتضاب والتكملة والتنبيهات والخصائص والزاهر وفصل المقال والكتاب والكامل والمقتضب والمنجد، وبعض شروح الفصيح، وأكثر نقوله التي لم يصرح بها من الاقتضاب لابن السيد البطليوسي.

ومن العلماء الذين تردّدت أسماؤهم في الشرح أذكر من البصريين : أبو عمرو بن العلاء و الخليل وسيبويه وأبو زيد والأصمعي وأبو حاتم السجستاني وابن قتيبة والزجاج، ومن الكوفيين : الكسائي والفراء وابن الأعرابي وثعلب وابن السكيت. وأبو عمرو الشيباني وابن الأنباري وأبو عمرو المطرز، ومن البغداديين : أبو علي القالي، ومن الأندلسيين : أبو بكر الزبيدي وصاعد وابن سيده وأبو عبيد البكري وابن السيد البطليوسي وأبو بكر بن العربي وأبو بكر ابن أبي العافية وأبو مروان عبد الملك بن سراج، كما ذكر طائفة من الرواة والمحدثين والقراء والمؤرخين، وكان أيضا من مصادره أقوال عامة زمانه.

5. **التوثيق اللغوي :**

وثق ابن هشام اللخمي متنه بجمهرة كبيرة من مصادر الاحتجاج اللغوي مثل :

أ ـ **القرآن الكريم** : بلغت الشواهد القرآنية في الشرح تسعا وخمسين آية، من ضمنها ست قراءات قرآنية، وثق بها قضايا صوتية وصرفية ونحوية ودلالية، ومنه في التوثيق الصرفي (قال الشارح : واسم الفاعل منهما : مُريب ومُليم، قال الله تعالى ﴿فالتقمه الحوت وهو مُليمٌ﴾.

ب ـ **الحديث النبوي الشريف** : بلغت شواهده منه حوالي أربعين حديثا، بما فيها أقوال الصحابة والتابعين، وقد احتج بالحديث في المستويات المختلفة للغة و لم يتحرج في الاستشهاد به، كما هو الحال عند بعض العلماء، وجل أحاديثه منقطعة السند. ومنه في التوثيق الصوتي (غارة : حذفت منها الهمزة والأصل إغارة، كما حذفوها من الاخوة فقالوا : خوة، وجاء في الحديث في بعض الروايات (ولكن خُوَّة الإسلام...).

ج ـ **الشواهد الشعرية** : يأتي الاحتجاج بالشعر عند ابن هشام في المرتبة الأولى، إذ بلغت شواهده منه (280) شاهدا، عزا منها (93) شاهدا، غير الشواهد المعزوة للقبيلة أو لفرد أو لأعرابي أو لجارية أو لامرأة، وقد أخطأ في نسبة شاهدين فقط، وضمن شواهده (23) شاهدا من شواهد الفصيح.

وقد تنوعت اللازمة التي يقدم بها شاهده، كقوله قال عنترة وقال الشاعر، وقال آخر... الخ، كما استشهد بأبيات كاملة وبمقطوعات، وبأنصاف الأبيات، وبقطعة من البيت، أي أنه يكتفي بذكر موضع الشاهد فقط، وشمل شاهده المستويات الأربعة للغة، وتعداها إلى قضايا عامة، وقد توزعت الشواهد

على أبواب الشرح بنسب متفاوتة تتراوح بين (0-40) شاهدا في الباب الواحد.

قال في توثيق المقصور والممدود : (فأما الجرَّاء فيمد ويقصر، تقول : فعلت ذلك من جرَّاك ومن جرَّائِك.

قال الشاعر :

أمن جرَّابني أسدٍ غضبتم .·. ولو شئتم لكان لكم جوار
ومن جرَّائنا صرتم عبيدا .·. لقوم بعدما وُطيء الخيار

د ـ **الأمثال والأقوال** : الأمثال في شرح ابن هشام قسمان، قسم احتج به ابن هشام لتوثيق استعمالات لغوية في مستويات عدة، وقد بلغ عدد هذا القسم (20) مثلا وقولا.

أما القسم الثاني من أمثاله فقد ورد ضمن الباب السابع والعشرين بعنوان (ما جرى مثلا أو كالمثل) وتبلغ زهاء خمسين مثلا وقولا، وقد اتسم شرحه لها بسمات لا نجدها عند مؤلفي كتب الأمثال وشرحها، ومما يلاحظ على ابن هشام في توظيفه مصادر الاحتجاج اللغوي أنه يجمع بينها أحيانا في المادة الواحدة وذلك ليؤكد صحة الاستعمالات التي يعرضها في الشرح.

6. **التفسير اللغوي** :

أولى ابن هشام أهمية كبيرة لضبط الألفاظ التي يعرضها منعا للبس والوقوع في التحريف والتصحيف، وقد استعمل أنواع الضبط المعروفة في أكثر من مائتين وخمسين موضعا، واستعمال الضبط بالحركة لم نتأكد من أنه استعمله شخصيا وذلك لعدم وصول الأصول الخطية التي كتبها بيده، ومثال الضبط بالحرف قوله (الحَدأة بالفتح : الفأس التي لها رأسان، وجمعها حِدَأٌ، مقصور مهموز) ومثال الضبط بالعبارة قوله : (وقالوا : عُنُق بضم النون وعُنْق بإسكانها)، ومن ضبطه بالوزن الصرفي قوله : (ويقال أيضا : آرم على وزن فاعل، ومابها أريم على وزن فعيل بمعنى واحد)، ومن ضبطه بالمثال المشهور قوله : (والأكلة جمع آكل، مثل كافر وكفرة وفاسق وفسقة وفاجر وفجرة).

أما وسائل التفسير التي استعان بها فهي عديدةمنها :

التفسير بالمرادف، كقوله : (البون : المسافة والبعد والمقدار)، والتفسير بالمقارب أو المثل، كقوله : (والجمل مثل الرجل والناقة مثل المرأة، والقلوص كالشابة، والبعير كالإنسان يقع على المذكر والمؤنث)، والتفسير بالضد، كقوله : (الجيِّد ضد الرديء والجواد ضد الرداءة)، والتفسير بالأعجمي، كقوله : (الدرهم البهرج : الرديء وكل مردود عند العرب بهرج، ونبهرج، وهذا الحرف فارسي أصله نبهره)، والتفسير بالعامي، كقوله : (والزِّرّ هو الذي تقول له العامة : الزرار).

7. **الظواهر اللغوية في الشرح** :

تعددت الظواهر اللغوية في الشرح وتنوعت إلى حد أنها تكاد أن تعكس الدرس اللغوي عند ابن هشام كما هو في مؤلفاته المختلفة، ويمكن أن نجملها في الآتي :

أ ـ **الظواهر الصوتية** : وهي متنوعة، وقف عندها ابن هشام شارحا ومعللا للقواعد التي تضبطها ليبين أوجه استعمالها، ومعظمها يمكن إدراجها في باب الإبدال، وهو أحد عوامل نماء اللغة وتطورها، فقد تناول إبدال الهمزة وتخفيفها وحذفها في نصوص كثيرة، وأورد إبدال الباء والميم، واللام والراء، والتاء والطاء، والسين والصاد والزاي، واللام والميم، واللام والراء، والميم والنون والباء، والقاف والغين، والكاف والياء، والواو والتاء. والنص الآتي مثال على تناوله المادة الصوتية : (والصقر... يقال أيضا بالصاد

والزاي والسين، وهي الأصل وإنما قلبوها صادا لأن السين حرف مهموس والقاف حرف مستعمل فقلبوا من السين صادا لأن الصاد لإطباقها قريبة من القاف فهي تواخي السين في الهمس وتواخي القاف في الاستعلاء، ومن قلبها زايا فلأنها توافق القاف في الجهر، ومثل هذا صندوق وزندوق وسندوق).

وتعرض لعدد من الألفاظ وقع التخالف بين أصواتها طلبا للخفة في النطق، كما في دوّان وقرّاط ودنّار وأمللت وإجّاص وذُرُّوحة ورُزّ، وكذلك التبادل الواقع بين الحركات القصيرة، والقلب المكاني.

ب ـ **الظواهر الصرفية** : خص ثعلب ثلثي الفصيح لأبنية الأفعال والأسماء، ولذلك فلا نتعجب إذا وجدنا شرح الفصيح يحتوي على مباحث صرفية متنوعة في الأفعال والأسماء، فقارئه سيقف فيه على موضوعات صيغ الأفعال على اختلاف أبنيتها، الثلاثية وغير الثلاثية، المجاوزة وغير المجاوزة، وصيغ الأسماء، كالأفراد والتثنية والجمع، والتذكير والتأنيث، والتصغير والنسب، والمقصور والممدود والمنقوص، والمشتقات على اختلاف أنواعها.

وقد اتسم منهجه بالجمع بين المسائل الصرفية في موضع واحد، ولا سيما المشتقات، واعتنى بذكر أصول الكلمات وأوزانها وما يطرأ عليها من إعلال وإبدال وقلب وحذف وإدغام، مع الإشارة إلى القياس والسماع كلما دعت الحاجة العلمية إلى ذلك، وكان يناقش الآراء التي يستند إليها في تأكيد استعمال معين، ووشى مادته بالشواهد المختلفة والتنوع في الاستعمالات اللغوية، ولذلك جاء مقياسه الصوابي الذي يحتكم إليه متسما بالسهولة والتوسع في استخدام اللغة، ومن معالجاته الصرفية هذا النص الذي يعقب فيه على ثعلب في إنكاره استعمال الماضي واسم الفاعل من (وذر وودع)، وعلى سيبويه في قوله : إنه لم يُسمع منهما مصدر (... كل قال بحسب ما بلغه وقد سمع الماضي منهما، قال الله تعالى : ﴿مَاوَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ على قراءة من قرأ «ودعك» بالتخفيف.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : «يا عائشة إن شر الناس منزلة يوم القيامة من ودعه الناس أو تركه الناس اتقاء فحشه».

قال الشاعر :

ليت شعري عن خليلي ماالذي . . غاله في الحب حتى ودعه

وقال آخر :

وكان ما قدموا لأنفسهم . . أكثر نفعا من الذي ودعوا

وأما (وذر) فوقع في حديث أبي جهل أنه قال لابن مسعود ـ يوم بدر ـ عن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ : «لقد قطع الرحم وسفك دماء الصناديد وما بقي وما وذر» فاستعمل الماضي كما ترى، وأما المصدر ل(يدع) فقد جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «لينتهين أقوام عن ودعهم الجمعة أو ليخالفن الله بهم»...).

إن ابن هشام في هذا النص يؤكد استعمال الماضي والمصدر من (يدع) وسنده في ذلك القرآن الكريم وقراءة النبي وحديثه الشريف وهو أفصح العرب ـ كما استدل ببيتين من الشعر الفصيح، فهو لا يرى مانعا في استعمال ماورد عن العرب الفصحاء، وقد التمس عذرا للعلماء المنكرين للصيغ المذكورة لأنها لم تبلغهم. والأمر اللافت للانتباه في هذا النص وغيره مما ورد في الشرح هو أن ابن هشام لم يناصر أحدا على أحد، وإنما اكتفى بعرض المسألة بطريقةعلمية موضوعية دون شطط في الرأي.

ج ـ **الظواهر النحوية** : لما كان الفصيح كتاب في الأبنية فإن المادة التي وردت في شرحه قليلة وما جاء منها فإنما سيق لبيان المشكلات الغامضة في الألفاظ والتراكيب. وقد تحدث ابن هشام عن اللزوم

والتعدي وأسماء الإشارة، وأسماء الموصول ، والظروف، والحال، والتمييز، والحروف، والإضافة، والحذف، والممنوع من الصرف، كما ألمع إلى عدد من المصطلحات النحوية والصرفية والعروضية، وأبرز العبارات التي استطرد فيها ودلل لها بالآراء والتعليلات هي (جلس وسط الدار)، (عرق النسا)، (كان ذلك عاما أول)، (ما رأيته مذ أول من أمس).

د ـ الظواهر الدلالية : معظم الظواهر الدلالية التي أوردها ابن هشام في شرحه لم ينتظمها باب معين، وإنما وردت عرضا في أثناء شرح مواد الفصيح والتعليق عليها، وهي تشمل تعميم المعنى وتخصيصه، والمشترك اللفظي، والترادف، والتضاد، والفروق الدلالية الناجمة عن تغير الحركة أو الحرف أو الصيغة، وكذلك ما يتعلق بحياة الألفاظ كالمعربات والعامي.

قال في المشترك : (قال الشارح : وجدت له خمسة معان ذكر منها أربعة و لم يذكر الخامس وهو العلم والإصابة والغضب والإيسار وهو الاستغناء والاغتمام وهو الحزن...).

وقال في الترادف : (والعنق، ومن أسمائها : الجيد والهادي والكرد والتليل والشراع).

وقال في التضاد : (... وكذلك ألح الغريم على غريمه، فالغريم الطالب والغريم المطلوب...).

هـ ـ ظواهر لغوية أخرى : وردت في الشرح ظواهر لغوية أخرى كثيرة غير التي تقدم ذكرها ذات قيمة علمية منها :

1) **الاشتقاق** : وهو كثير، كتصريف الأفعال، واشتقاق الأسماء وبيان أصولها،وسبب التسمية، وابن هشام لا يصرح دائما بمصطلح الاشتقاق كأن يقول : (الحائط : فاعل من حاط يحوط فهو حائط، لأنه يحوط الدار وغيرها ويحفظها والجمع حوائط وحيوط وحيطان).

وأحيانا ينص على المصطلح كما في قوله : (الخنزير من الوحش العادي معروف... ويكون مشتقا من الخزر، لأن الخنازير كلها خزر، والخزر كسر العين).

وقد يستخدم مصطلح الأخذ ومشتقاته كقوله : (وهو الأرز، وهو مأخوذ من الأرز، وهو الصلابة والشدة). وتارة أخرى يذكر سبب التسمية، كقوله : (واللَّحي بفتح اللام عظم الخد الذي تنبت عليه اللحية وبه سميت اللحية).

ولعل الملاحظة التي يمكن الإشارة إليها حول الاشتقاق عند ابن هشام هي أن الاشتقاق عنده جاء بمعناه العام الذي عرف عند الأصمعي وابن دريد في كتابيهما (اشتقاق الأسماء والاشتقاق).

2) **اللهجات (اللغات)** : أشار ابن هشام اللخمي في شرحه إلى مواد لهجية كثيرة موزعة على أبواب الشرح ولعل مرد هذه الغزارة حرصه على إفادة القارىء بالاستعمالات المختلفة للكلمة في العربية مع بيان درجة الفصاحة، وقد بلغت اللهجات في بعض الألفاظ التي ذكرها عشر حالات، قسم منها معزو للقبائل الناطقة بها وهو قليل، وقسم آخر لم يعزه وهو كثير، إذ اكتفى بذكر ما فيه من لغات والنص أحيانا على درجة استعمالها (قليلة، رديئة، لغة القرآن، فصيحة، أولى، أجود، ضعيفة، أفصح، قياسية، سماعية... الخ).

قال في اللهجات المعزوة : (... أهل الحجاز يقولون : من فلق، وبنوتميم يقولون : من فرق).

وقال فيما ورد فيه خمس لغات و لم يعزها : (يقال أُرُزٌ، وهي اللغة الفصيحة بضم الهمزة والراء، وأُرْزٌ، وأَرْزٌ، ورُزٌّ كما تنطق به العامة، وَرُنَزٌ وهي لغة رديئة).

وقد وقف ابن هشام إزاء ثعلب مواقف متباينة بشأن هذه اللهجات، مؤيدا له حينا ومخطئا له حينا آخر وربما استدرك عليه، وحرص على تقديم السند من كلام العرب حتى يؤكد الاستعمالات اللهجية التي يوردها، ولعل الأمر الذي يؤخذ عليه في هذه المادة اللهجية هو إغفاله نسبتها إلى قبائلها، لأنه فوت على المتعلمين والباحثين رسم حدود المسلك اللغوي المستعمل، ومن جهة أخرى نلاحظ تعدد المصطلح الذي يعقب به عن اللغات التي يعرضها، وهو الذي يحدد درجة الاستعمال ومقياسه الصوابي الذي يحتكم إليه، كقوله : السماع، والقياس، والشذوذ، والإطراد، والفصيح، والأفصح، وغير الفصيح، والرديء والضعيف، ولغة القرآن، وكلام العامة، ولا يجوز ، ولا يقال، ولم يقولوا، وأولى، وأجود، وأبين... الخ.

3) **المعرب** : نالت المعربات في شرح ابن هشام حظوة كبيرة، لأنه استعان بها في شرح بعض المواد، وهو بهذا المسلك يكون قد زود اللغة العربية بثروة لفظية تزيد في نمائها، وهذه المعربات نوعان : نوع صرح بعجمته وربما ذكر لغته التي نُقل منها، ونوع جاء عرضا دون التصريح بعجمته، فالأول كقوله : (وهو الجورب : يعني الذي يُلبس في الرجل يقي من البرد، وهو أعجمي معرب). ومن ألفاظ الثاني : العربون، والكتان، والرصاص، والحواري، والرطل، والمنجنيق.

وكثرة هذه الألفاظ في الشرح ترجع إلى كون العربية لم تبقها على صورتها الأصلية، وإنما هذبتها وأخضعتها لنسقها وجعلتها تجري مجرى الألفاظ العربية، وهو الأمر الذي سوغ لابن هشام الأخذ بها في شرحه.

4) **العامي** : بلغت المواضع التي تكلم فيها ابن هشام عن كلام العامة صراحة ثلاثين موضعا غير المواضع التي لم يصرح بها، وقد استعان ابن هشام بأقوال العامة ومسموعات بيئته لشرح ألفاظ الفصيح، ولم يعلق عليها بالاستحسان أو الاستهجان، وقد جوز استعمال كلمات عامية رفضها لغويون آخرون مثل (طِوال، وحُزَّة، والإنْجاص، ويتعاهد، ولبوة، ويسوى، والظفر، ومالح... الخ)، ورفض كلمات أخر مثل (العَرْبُون، والزوق، والشواش، والكسكاسة).

وقد ظهر من استقراء كلام العامة عنده أن مصطلح العامة لا يقترن بالضرورة بمصطلح اللحن الذي ذكره مرة واحدة في الشرح.

5) أشار في الشرح إلى عدد من المصطلحات العروضية والضرورات الشعرية، كالأكفاء والأقواء، والأرجوزة، والمشطور، والمنهوك، والمتقارب.

8. المعارف العامة في الشرح :

لم يقصر ابن هشام شرحه على التفسير اللغوي في مفهومه العام، وإنما أثراه بجملة من المعارف العامة لا تقل أهمية عن المسائل اللغوية التي تقدم ذكرها، فقد عني بأسماء الأمراض والبلدان والمواضع والجبال، وأسماء الحيوانات، والنباتات، وغير ذلك من الأمور التاريخية والمسائل الفقهية.

9. شخصية ابن هشام اللخمي في الشرح :

من المسائل التي تقدمت حول منهج الشارح ومصادره ووسائل التفسير اللغوي والظواهر اللغوية على اختلاف أنواعها. والمعارف العامة التي أشرنا إليها باقتضاب يمكن القول أن ابن هشام اللخمي عالم واسع الاطلاع متعدد المناهل العلمية، يحاجج للقضايا التي يدرسها بالكلام العربي الفصيح، ولا يعرض تفسيره اللغوي إلا وأتبعه بالتحليل والمناقشة والنقد، مستدركا أو مخطئا، أو مدافعا، أو مجوزا، أو رافضا، ولذلك يعد شرحه أحد الشروح التعليمية التي أقبل عليها العلماء والمتعلمون ينهلون من مادته.

وتبدو شخصيته العلمية من خلال المواقف التي وقفها إزاء ثعلب والعلماء الآخرين، وهي مواقف اتسمت بالطرح العلمي، فثعلب استدرك عليه مواد كثيرة وخطأه في مسائل أخر، وآخذه في قضايا متعددة، وانتصر له في عدة مسائل أيضا، ومن استدراكاته على ثعلب (تقول : هي لَحمة الثوب بالفتح. قال الشارح : لُحمة الثوب بالضم : طعمته وهو ضد السدى، تقول ألحمت الثوب إلحاما).

وقال في تخطئته : (وتوهم أبو العباس أن الهَدْيَ والهَدِيَّ مصدران مخالفان لمصدر أهديت الهدية، وليس كذلك، لأن مصدر أهديت الهَديَّة، وأهديت الهَدْيَ واحد وهو الإهداء).

وقال في مؤاخذته : (وقالوا في المستقبل : ينمو وينمي وهما لغتان فصيحتان، وكان حقه أن يذكرهما كما شرط، ولم يأت إلا بينمي فقط).

وقال في الانتصار له : (... ومفروح به اسم مفعول من فرحت، ولا يقال مفروح إلا أن يقال مفروح به، كما حكى أبو العباس).

وقد كانت مواقفه إزاء العلماء الذين استدل بآرائهم متسمة بالموضوعية والطرح العلمي، ولم يشتط في موقف من المواقف التي كانت تتراوح بين القبول والاستحسان، والرفض والاستدراك، كما أنه لم يفضل عالما على آخر من بصريين وكوفيين وأندلسيين إلا من كان رأيه يوافق رأي الجمهور أو في أعلى مراتب الفصاحة، وهذه القيمة العلمية التي اكتسبها شرح ابن هشام جعلت العلماء يتخذونه مصدرا لكتبهم فيما بعد كأبي جعفر اللبلي في كتابه (تحفة المجد الصريح في شرح كتاب الفصيح)[7]، وعبد القادر البغدادي في كتابه (خزانة الأدب)[8]، ومرتضى الزبيدي في معجمه (تاج العروس)[9].

الهوامش

(1) تنظر ترجمته في : المطرب 168، التكملة لكتاب الصلة 2 / 675، الذيل والتكملة 6 / 70، 75، الوافي بالوفيات 131/2، البلغة في أئمة اللغة 209، بغية الوعاة 48/1، 49، كشف الظنون 1807/2، هدية العارفين 2 / 97، الاعلام 3185.

(2) الذيل والتكملة 6 / 70، التكملة لكتاب الصلة 2 / 675.

(3) الذيل والتكملة 5 / 160، التكملة 2 / 676، البلغة في أئمة اللغة 210.

(4) بغية الوعاة 2 / 28.

(5) الذيل والتكملة 6 / 75.

(6) الذيل والتكملة 6 / 71.

(7) تحفة المجد الصريح 1 / 6، ومواضع اخرى كثيرة.

(8) خزانة الأدب 1 / 25 ومواضع أخرى.

(9) تاج العروس (وجد) 1 / 261.

تنبيه : أخي القارىء إن المصادر والمراجع التي أقمت عليها هذه الدراسة قبل تلخيصها في هذه الصفحات القليلة كثيرة ولا يسع المقام لذكرها هاهنا، وقد اكتفيت بذكر الهوامش التي تسهل الرجوع إلى حياة المؤلف لمن أراد التوسع.